

الباب الرابع

التأسيس الحكيم للحريات في الإسلام

الفصل التمهيدي: التأسيس الحكيم للحريات وتفض العبودية الباطلة

الفصل الأول: التأسيس الحكيم لحرية الرأي الشخصي

الفصل الثاني: التأسيس الحكيم لحرية الرأي الاجتماعي

الفصل الثالث: التأسيس الحكيم لحرية الرأي السياسي

obeykandi.com

التأسيس الحكمي للحريات ونقض العبودية الباطلة

التأسيس الحكمي يقوم على أداة النهي «لا»، وقد تبين في المناهج المعرفية القرآنية أن القرآن الكريم يقدم المنهج المعرفي البياني قبل المنهج المعرفي الحكمي، أي يقدم إثبات الحق على نفي الباطل، ويوفر الحلال في كل شيء ويؤمنه قبل أن ينهى عن الحرام ويزجر أهله، وهو ما تبين في الباب السابق، ولكن الدنيا لا تخلو من الأشرار والمفسدين والطغاة، الذين يعيشون في الأرض الفساد، ولذا كان لا بد من حماية الناس من شرور أنفسهم وبالأخص من شرور المترفين والمتكبرين والمفسدين منهم، ومع هؤلاء المفسدين في الأرض لا بد من الخطاب الزاجر، ولا بد من المنهج المعرفي الحكمي الذي يحمي الناس من شرور المجرمين.

لذا نجد في العديد من الآيات والسور القرآنية تركيزاً على نفي الباطل، وكشف الكذب، وإبعاد الزيف، ومنع الفساد، وهذا ما يقصد بالمنهج المعرفي الحكمي في القرآن الكريم، فهو من الحكمة أي المنع، وقد بين أهل اللغة أن أصله من الحكمة، أي قطعة الحديد التي توضع في فم الحصان فيلجم بها⁽¹⁾، فإذا كان ذلك كذلك فإن أحق ما يقدمه الإنسان لنفسه هو إبعادها عن الضرر والشور والفساد، وهو ما دعا إليه القرآن الكريم بالمنهج المعرفي المصالحى، وأن لا يضع الإنسان نفسه في المهانة والضعف والذلة، التي تستدعي من الآخرين تقويمه، سواء كانوا آباءً أو معلمين أو أولي أمر اجتماعيين أو سياسيين.

إن السبب الحقيقي وراء تشريع أداة النهي «لا» في التشريع الديني والقانون المدني هو موقف إبليس من خلافة آدم، أي موقف إبليس من حرية آدم، فالخلافة حرية وتجديد كما سبق بيانه، وإبليس فسق عن أمر ربه أولاً، وحسد آدم من خلقه ثانياً، قال الله تعالى في

(1) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ص 277.

سورة الأعراف: ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِن خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْهَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَّا نَبَّحَ بِهَا مَقَرُّهَا يُعَاقِبُ مِنْهُمُ لِأَمَلَانٍ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ۞

لقد حسد إبليس آدم على سجود الملائكة له بأمر الله وعلمه، فكان الموقف العدواني لإبليس ضد آدم هو السبب الأول في وقوع آدم في المعصية، ولذا كان لا بد من تحذير آدم وبنيه من عدوهم الأول وهو الشيطان الرجيم، ولولا وجود الشيطان وعداوته للإنسان، لكان الإنسان أكثر أماناً على نفسه ومجتمعه ودولته، ولكان بعقله وحنكته قادراً على تمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والعمل بمقتضاها ودون تعمد مخالفتها، ولكن الشيطان أخذ على نفسه إغواء الإنسان وتزيين الفواحش والقول على الله بغير علم. إن القرآن الكريم والسنة النبوية إذ تبين هذه القضية الأساسية في حياة الإنسان والناس، فإنها تهدف إلى حماية الإنسان من الشيطان وشروره ومفاسده، ولما لها من أهمية كبرى في تقويم حياة الإنسان وحتى لا يضل ولا يشقى، فإذا كانت خلافة آدم وحرية وتجده وسجود الملائكة له سبب هلاك إبليس وخروجه من زمرة الملائكة والجنة، فالأحرى أن تكون حرية آدم وسجود الملائكة له سبب نجات الإنسان وسعادته ومرضاة ربه، ولذا ترتبط العبودية الباطلة في علاقة طردية مع الظلم والإفساد والاستبداد، وأنه كلما كان الإنسان حراً في رأيه كان أكثر عبودية لله تبارك وتعالى بصدق وأمان.

إن كل عبودية لغير الله هي عبودية باطلة وظالمة للإنسان ومنتهكة لحقوقه وحرية الرأي والعقل والتفكير السليم، فليس هدف الإسلام من التركيز على المنهج المعرفي الحِكْمِي هو التحكم بالإنسان ولا مخالفة رأيه وعقله وتفكيره، ولا تقييد حريته بالمحرمات والنواهي والزواجر، وإنما حمايته من جهله والجهلاء من قومه، مصداقاً لقول الله تعالى في سورة هود:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَنكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

وَالِيهِ أُتِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمٍ لَا يَحْرَمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهَيْتُمِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا لَرِغْوَانٍ فِيهَا أَلا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعَدَتْ نَعْمُودُ ﴿٩٥﴾ .

في هذا الآيات الكريمة يظهر المنهج المعرفي الاعتباري، ليكشف عن ضلال أقوام سابقة، لم تنتفع بالبينة وادعت عدم فهم قول الرسول، أي أنكرت الرأي الحر، بالرغم من أن نبي الله شعيب يقول لهم: وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ، أي إنه لا يهدف إلى مخالفة قومه لمجرد المخالفة وإنما لإصلاحهم، وهذا الموقف الرفض لحرية الرأي من مدين قوم شعيب مؤسس على عبودية باطلة، وهذا دليل على أن كل عبودية باطلة هي معارضة للرأي الحر حتماً، وخاسرة لنفسها في الدنيا والآخرة.

وحيثما يقدم الإسلام المنهج المعرفي الحكمي على المنهج المعرفي البياني، فإن هناك حاجة معرفية توجب ذلك، ومثال ذلك في سورة النجم المكية، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾، فقد بدأت السورة الكريمة بنفي الضلال والغوى عن النبي عليه الصلاة والسلام، ونفت عنه أن يكون صاحب هوى فيما يأتي به من علم جديد، ثم بينت السورة بعد ذلك مصدر هذا العلم، فقالت: إنه وحى يوحى به من الله تبارك وتعالى، وأنه من تعليم ملك كريم شديد القوى، أي إن القرآن الكريم في سورة النجم قدم المنهج الحكمي على المنهج البياني، وكلاهما منهجان معرفيان صادقان، لأن أهل مكة اهتموا الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنون والضلال كذباً وزوراً.

ومعلوم أن الآية الأكبر في شهادة الحق بدأت بأداة النفي «لا»، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾، وأن الآية الأهم في تأكيد حرية الدين قد بدأت بأداة النفي «لا» أيضاً، وهي قوله الله تبارك

(1) سورة: آل عمران، الآية رقم (18).

وتعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

فالآية الأهم في تقرير الحرية الدينية قد ثبتت بالمنهج المعرفي الحكّمي فبدأت بالنفي قبل الإثبات، أي بالتأسيس السلبي قبل التأسيس الإيجابي، ودواعي ذلك أن الإنسان إذا صرف عن الغواية، فهو أقرب إلى الاهتداء إلى الحق بنفسه، ومصدر الغواية هو الشيطان الرجيم كما توعد هو بنفسه: قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، وأكبر غواية يتعرض لها الإنسان والناس هي صرفهم عن العبودية الصادقة لله تعالى إلى العبودية الباطلة، وصرفهم عن الحرية العالمة إلى الحرية الكاذبة، والعبودية الباطلة تصرف الناس عن عبادة الله سبحانه وتعالى إلى عبادة الآلهة الوهمية من كواكب وحجارة ودواب بشرية وحيوانية وغيرها، وهذه الآلهة الوهمية أدوات تجارية بيد المتكبرين والمترفين والمفسدين في الأرض، وكل طاعة للشيطان هي عبادة له وانتهاك لحرية الإنسان، وبالأخص لحرية الرأي، لأن حرية الرأي هي رأي حر، أي رأي وتفكير عادل وخير وشريف وصحيح، كما هو معنى الرأي في اللغة العربية والسنة النبوية، وكما هو معنى كلمة الحرية في اللغة العربية أيضاً.

ولذا استعمل القرآن الكريم المنهج المعرفي الحكّمي في مجال العبادة كثيراً، لأنه جاء في النهي عن العبادات الباطلة أكثر من أمره بالعبادة الحقة، كما في قوله تعالى في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكٰفِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾، في هذه السورة الكريمة تأكيد على تقديم المنهج الحكّمي بنفي كل عبادة باطلة، قبل إثبات العبادة المستقيمة، وهي من أوائل سور القرآن الكريم نزولاً.

وقد تنوع خطاب المنهج المعرفي الحكّمي في معالجة آثار العبودية الباطلة وانتهاك حقوق الإنسان بحسب مجالات حياة الإنسان والناس، والتي صنفناها في ثلاثة مجالات هي المجال الفردي والمجال الاجتماعي والمجال السياسي، ففي كل واحد منها إما تكريم للإنسان والناس وإما ظلم وفساد، يدعو إليه الأشرار والمترفون والمجرمون.

(1) سورة: البقرة، الآية رقم (256).

وفي السنة النبوية الشريفة تعريف للعبودية الباطلة وأنها مناقضة لحرية الإنسان، فقد أخرج البخاري في صحيحه قال: (حدثنا يحيى بن يوسف: أخبرنا أبو بكر، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (تعس عبد الدينار، والدرهم، والقטיפه، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض). لم يرفعه إسرائيل، عن أبي حصين.

- وزادنا عمرو قال: أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماءه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع).

قال أبو عبد الله: لم يرفعه إسرائيل، ومحمد بن جحادة، عن أبي حصين. وقال: {تعساً} كأنه يقول: فأتعسهم الله. {طوبى} فعلى من كل شيء طيب، وهي باء حولت إلى الواو، وهي من يطيب⁽¹⁾.

قال الإمام ابن حجر: (عبد الدينار: أي طالبه الحريص على جمعه، القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده، قال الطيبي: خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذي لا يجد خلاصاً⁽²⁾).

(1) الجامع الصحيح، الإمام البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو، رقم (2886).

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لإمام ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، رقم (6435)، ج

obeykandi.com

التأسيس الحكمي لحرية الرأي الفردية

يقوم التأسيس الحكمي لحرية الرأي الفردية على امتلاك الإنسان القدرة المعرفية والعلمية بما يضره وينفعه، وبما يعود عليه بالشر أو الخير، أي بما في عقله من معان عن المصالح والخسائر الدنيوية والأخروية معاً، والإسلام حرص على بيان الحكمة للناس كافة، وتعليمها بصورة أحص للمسلمين والمؤمنين كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١٦﴾﴾^(١).

كان تعليم الحكمة لأفراد المؤمنين في السور المكية في سور عديدة منها سورة لقمان وهو يعظ ابنه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقْرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرِحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَسِيكِ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

هذه الآيات الكريمة تقوم على المنهج المعرفي الاعتباري، أي على بيان ما في قصة لقمان من علم وحكمة، والعلم ما فيه طلب الفعل، مثل توصية الإنسان بالديه، والحكمة تعليم الإنسان ما فيه طلب النهي، مثل النهي عن الشرك، وعدم طاعة الوالدين في

(١) سورة: آل عمران، الآية رقم (164).

المعصية، وعدم تصعير الوجه، وعدم المشي في الأرض مرحاً، فالمنهج القصصي الاعتباري تضمن المنهج البياني التعليمي والمنهج المعرفي الحكمي.

في هذا المنهج الاعتباري نص على حرية الرأي بقوله: وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، والأمر بالمعروف استعمال لحرية الرأي في بيان الحق، والنهي عن المنكر استعمال لحرية الرأي في بيان المنكر ومفاسده، ومن آداب ذلك أن يكون بصوت معتدل مسموع ومفهوم، وليس بالصراخ والتهويل والصياح والعيول فقال: وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، أي إن حرية الرأي آداباً من أهمها الصوت الحسن، والصوت الإنساني وليس الصوت الحيواني الحماري، ومن آداب حرية الرأي الصبر على النفس وعلى الآخرين فقال: وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

ومعاني قصة لقمان مع ابنه تأكدت في آيات كثيرة منها قول الله تعالى في سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾﴾، فقد بدأ المولى عز وجل بالنهي عن عبادة الشيطان قبل المطالبة بعبادة الله سبحانه وتعالى، وأتباع صراطه المستقيم، وقول الله تعالى في سورة مريم:

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾.

أي إن توجه القرآن الكريم في آياته وسوره المكية الأولى كان إلى بناء شخصية الإنسان المعرفي الذي يعقل ويفكر ليصل به إلى الإنسان المؤمن، ووصف بالمؤمن لأنه الإنسان المصدق بالعلم والمطمئن به والعامل بمقتضاه، فهو على شريعة فردية ومنهج عملي وخلق حسن، أو في مصطلح العصر بناء الإنسان المثقف والملتزم بالقانون بحرية وقناعة تامة منه، كل ذلك من أجل أن يكون الفرد المسلم لبنة قوية في بناء المجتمع المسلم، ومشاركاً في تكوين شخصية الجماعة المسلمة المؤمنة، وبحيث تكون كل تربية أو تنمية للفرد ثقافياً جزءاً من عملية تربوية أو تنموية اجتماعية ثقافية موسعة، فلن تخلو عبودية باطلة من إهدار لحق إنساني إطلاقاً، وبالأخص إهدار حرية الرأي.

حرية الرأي الفردية هي القاعدة التي انطلق منها الأنبياء والرسل جميعاً، فلم يبعث الله تبارك وتعالى نبياً ولا رسولاً إلا وكان رجلاً بشراً واحداً، وكان يستمد حقه في بلاغه لهم على حرية الرأي التي يتمتع بها كل إنسان بغض النظر عن قيم المجتمع الذي أرسل إليه أو أخلاق القوم الذين خاطبهم، ولم يكن الاعتراض على الأنبياء بسبب انعدام حرية الرأي وإنما بسبب ما كان يدعوهم إليه من قيم وأخلاق، وبسبب مخالفته لما ألفوه ووجدوا عليه آباءهم من قبل من قيم مخالفة للعقل.

الإسلام يحافظ على حرية الإنسان الفردية في المجتمع الذي ينتمي إليه، سواء كان الإنسان مسلماً أو غير مسلم، ويمنع قمع حريته حتى لو كان سلب حريته من أولياء أموره الاجتماعيين، كما سبق بيانه من سورة لقمان المكية في حق الآباء: ﴿وَلَنْ جَهْدَكَ عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۗ ۝١٥﴾.

ولم يتوقف قول الحقيقة ودعوة الناس إلى الخير على أفراد الأنبياء فقط، فقد أعطى القرآن الكريم أمثلة على رجال تدخلوا في قول الحق والتعبير عن آرائهم بحرية وهم أفراد أمام قومهم في أصعب المواقف وأخرجها لما فيه صلاحهم ونصحهم، كما في قوله تعالى من سورة يس:

﴿ أَتَسِعُوا مِنْ لَا يَسْتَلِكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدِنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ۝٢٣ إِنْ إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢٤ إِنْ ءَأَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ۝٢٥ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾.

في هذه القصة القرآنية الكريمة، قصة رجل عاقل عبر عن رأيه بحرية فيما يقع به قومه من ضلال وظلم اتجاه الرسل، وبين صواب موقف الرسل وخطأ موقف قومه بالقول فقط، أي بواسطة حرية الرأي، وليس بالشتم والسباب ولا استعمال العنف ولا القوة، وجاء التعبير عن الموقف الفردي مكرراً لأهميته، فكل آية من قصته تتحدث عن الصفة الفردية وتعبر عن الضمائر والمعاني الفردية، دلالة على أهمية رأي الفرد العاقل في نصح قومه بالرأي الصحيح والقول السديد.

وفي القرآن الكريم كله يأتي الاعتراض على رأي الفرد من القوم الكافرين، أي من القوى الاجتماعية الظالمة، أي القوم الذين يجحدون الحق وينكرون العلم، فمعنى الكفر في

القرآن الكريم هو المعنى اللغوي الذي يغطي الحق ولا يظهره بل يبعده، دون أن يتفكروا في صحة ما يقول، ومن قبل أن يتدبروا رأيه وما فيه من حق مبين، وحجتهم هي التراثية المريضة بتمسكهم بها كان يعبد آباءهم، ووصم العلم الحق بالإفك المفترى والسحر المبين كذباً وظلماً، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّسِيمٌ ﴿٤٣﴾ ﴾^(١).

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥١﴾ قَالَ أَلَمْ أَكُ مِنَ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنْ تَرَكَ فِي صَلَاتِي مُبِينٌ ﴿٥٢﴾ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَصْحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ أَلَمْ أَكُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنْ تَرَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٨﴾ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٩﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٠﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ زُرَادًاكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

فهذه دعوة الأنبياء تقوم على الفردية وأساسها حرية الرأي، التي عبر عنها القرآن الكريم بكلمة «قال» وهو يخاطب قومه، فقول النبي تعبير عن حرية الرأي، والقول أفضل من الرأي لأن القول كلام موجه بمعان ومقاصد، فقد كان النبي يبدأ قومه بالقول ثم يتبع قوله بالبينة أي معجزتها إذا كذبه قومه، والبينة آيات حسية أو عقلية أو كلامية من عند الله تبارك وتعالى، وهي التي وصفها العلماء بالمعجزات النبوية.

وفي الرسالة الخاتمة حصر البيان أي الإعجاز بالقول والبيان، فأمر القرآن الكريم النبي عليه الصلاة والسلام أن يخاطب قومه بهذه الآلية وبهذه المنهجية المعرفية فقال الله

(1) سورة: سبأ، الآية رقم (43).

تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤) ^(١)، فمعنى قل: أي عبر عن رأيك في هذه المسألة الأساسية في حياة الناس، ماذا تعبد، وابدأ بالمنهج المعرفي الحكمي، أي ابدأ بنفي صحة ما يعبدون من دون الله، ثم أعلمهم ما تعبده أنت، وأنتك أول المؤمنين به، أي أول من اتبع العلم وصدقه وعمل بمقتضاه.

(١) سورة: يونس، الآية رقم (١٠٤).

obeykandi.com

النبوية المطهرة، وذلك حتى يكون التكوين الاجتماعي القويم مرتهناً بنجاح المرحلة الابتدائية في تكوين الحرية في الحياة الفردية للإنسان، فلا يمكن بناء الحرية الاجتماعية قبل بناء الحرية الفردية، وهذا ما سعت الآيات الكريمة إلى تحقيقه.

فلئن كان العدو الأول للإنسان بالصفة الفردية هو الشيطان الرجيم، مصداقاً لقول الله تعالى في سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾، فإن العدو الأكبر للمجتمع هي الفئات المتكبرة والمترفة والتي تسعى لجعل المجتمع ومن فيه سوقاً تجارية لها، ولذا فهي لا تهاب ما يحدثه من فساد وانتهاك لحقوق الناس، طالما هي لا تفكر إلا بمصالحها وكذبها على مجتمعيها بكل الوسائل والطرق.

إن الإسلام أقام المجتمع الإنساني على قيم التراحم والإحسان والأخوة والتعاون وعدم الاعتداء، فقال تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِآيَاتِهِ وَإِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصِيَّتُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾، وحذر الناس من الخسران الدنيوي الأخرى فقال تعالى في سورة العصر المكية: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المجتمع المسلم المؤمن في مصطلح القرآن الكريم.

وقد ذكرنا من قبل أن المنهج المعرفي الحكمي ورد في سورة الإسراء، إذ في هذه السورة الكريمة تم تعريف الحكمة بالمعنى الإسلامي، فقال تعالى في سورة الإسراء المكية: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا ﴿٢٢﴾﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبِّكُمْ أَتَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ عَفْوَراً ﴿٢٥﴾ وَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْدُرْ بُدْرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الأَبْدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ رَبِّكَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُوراً ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً ﴿٢٩﴾﴾

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً
 إِمْلَأْتُمْ حَنُونًا تُزْدُهُمْ وَإِنَّا لَكُرْهُمُ إِنَّا قَتَلْنَاهُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فِتْنَةً
 وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ
 سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى
 يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
 الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
 أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ
 طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ بِمَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا
 تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

في هذه الآيات الكريمة يعدد القرآن الكريم الكثير من المنهيات، التي تسبقها أداة
 النهي اللغوية «لا»، فكانت في هذه الآيات أكثر مما أمر به إيجاباً، ثم أعقبها قوله تعالى:
 ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، فهذه المنهيات كلها سيئة ومكروهة، وجاء لفظ
 الوصف بالسوء والكرهية وليس التحريم والعقوبة لأن هذه الآيات مكية، بحكم أن
 تاريخ نزول سورة الإسراء مكّي، فأرادها الله الحكيم العليم أن تكون أحكاماً يلتزم بها
 المؤمن طواعية وهو في مكة دون أن يخشى عقوبة أو يهرب من حد.

والتزام أفراد المسلمين والمؤمنين بهذه الآيات طواعية وعن قناعة شخصية يؤمن
 للمجتمع المنشود أرضية بشرية سليمة، وشباباً راشدين طاهرين، وفتيات عاقلات
 عفيفات، يختارون بإرادتهم الطهارة وإذهاب الرجس عن أنفسهن، لما فيه حفظهن
 كريات، وحمائتهن من الأمرين بالمنكر والمفسدين في الأرض من الفاجرين والمترفين،
 فهذه الآيات الحكيمية أساس بناء المجتمع الإسلامي المنشود، لأن أساسه الطهارة ومعياره
 الحكمة.

وقد أبان المنهج المعرفي الحكمي في هذه الآيات الكريمة عن ضابط مهم من
 ضوابط حرية الرأي، وهو عدم إبداء الرأي إلا بعد العلم^{٤٠}، أي التوثق منه، فقال تعالى:
 ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾^(١)،

(1) سورة: الإسراء، الآية رقم (36).

فإبداء الرأي ينبغي أن يقوم على العلم المبني على السمع والبصر والفؤاد، أي على المعلومات الصحيحة، أو المشاهدات الموثقة، أو الاستدلال العقلي الصحيح، وليس على الظن والشك والتكهن، لأن إبداء الرأي مسؤولية دنيوية وأخروية، سواء كان الرأي دنيوياً أو دينياً كما بينته السنة النبوية، وعلى كل الأحوال فإن الآية إذ تطالب بالضابط فإنها تشترح حرية الرأي بالدلالة العقلية، فوضع الضابط أو الشرط على حرية الرأي دليل على وجوده وشرعيته، أو على وجوبه وقانونيته.

والقرآن الكريم يحذر بالمنهج المعرفي المألّي من تخلي الناس عن حرية الرأي الاجتماعي، في حالة أتباع الناس لكبرائهم ومترفهم والأغنياء الفاسدين منهم، فقال تعالى في سورة البقرة المدنية:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الرَّسُولَ وَرَأُوا الْمَكَذِبَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَسَتَرْنَا لَهُمْ آيَاتِنَا فَذُكِّرُوا فِيهَا لَمَّا ظَنُّوا فَسَتَرْنَا عَنْهُمْ آيَاتِنَا فَلا يَتَّبِعُونَ اللَّهَ وَلا الرَّسُولَ بَدْحًا أَلَّا يَلْحَقُوا بِفِئْتِهِمْ إِن سَأَلُوا فَيَقُولُوا إِنَّا يَأْتِيَنَا بِالْقُرْآنِ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَنزَلَ آبَاؤُنَا أَوَّلُوا كَأَن لَّا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

في هذه الآيات الكريمة بيان أن الشيطان ومن يمثله يستغل حرية الرأي في الإفساد، وذلك عن طريق الأمر بالمنكر: ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٦٨﴾، فالأمر بالمنكر من حرية الرأي الباطل، والقول على الله بغير علم من حرية الرأي الكاذب، وهذا ما ينبغي على الناس أن يحذروه ويتجنبوه، بينما الأنبياء يخاطبون أقوامهم بالبينه، ويعلمونهم إياها، ويعرضونها عليهم، ولا يسألونهم عليها مالا ولا أجراً، فإذا رفض القوم بينه ربهم وأعرضوا عن رحمته، وأنكروا نبوة بشر منهم، فليس من صلاحية النبي أن يلزم قومه بالبينه وهم لها كارهون.

أي إن الأنبياء يحاورون قومهم بحرية صادقة، وقرار الإيمان أو الكفر من حق الناس، والله لم يهلك قوماً لأنهم لم يؤمنوا فقط، وإنما بسبب عدوانهم على الأنبياء والذين

آمنوا معهم، أي إن العقوبة ليست على حرية الرأي، وإنما على العدوان على الأنبياء والذين معهم، وهو ما يوصف في القرآن الكريم بالكفر أو بالإجرام أو بالظلم، مصداقاً لقوله الله تعالى في سورة هود:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنهَوْتَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجْبَأْنَا مِنْهُمُ وَإَتَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

وقبل أن نبين الأسس النبوية الحكيمة التي أقام النبي عليه الصلاة والسلام عليها مجتمع المدينة المنورة نبين كيف أن المجتمع المدني في أصله قام على مخاطبة أهله على أساس حرية الرأي التي توحد المجتمع وتقوي أبنائه:

قال ابن إسحاق: (وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقب وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بن عبد الأشهل ودار بني ظفر وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر.

قال ابن هشام: واسم ظفر كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس قال علي بن بئر يقال لها بئر مرق فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومها من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير لا أبا لك انطلق الى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهبها عن أن يأتيا دارينا فإنه لولا أن أسعد ابن زرارة مني حيث قد علمت كفيتك ذلك هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

قال فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد ابن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه. قال فوقف عليهما متشتماً، فقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعترلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهره، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين.

ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديمهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد ما فعلت، قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتها فقالا نفعنا ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك.

قال: فقام سعد مغضباً مبادراً تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أعنيت شيئاً، ثم خرج إليهما فلما رأهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني أغشانا في دارنا بما نكره، وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير، أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، قال فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته وأن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن قالوا فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهره، ثم قال لهما: وكيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا تغتسل فتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين. قال فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا نلحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون⁽¹⁾.

هذه قصة إسلام أهل يثرب، لم يسلم أحد منهم كرهاً، بل بالحوار وحرية الرأي، حرية الرأي من الداعي والمدعو، حتى يكون إيمان الأفراد مكوناً للإيمان الكلي للمجتمع، فلا يكون لأحد عليه سلطان سوى سلطان العلم والإيمان وحرية الرأي، ومقاومة كل مفسد سواء طغاه منصبه أو ماله أو ترفه على التكبر والإفساد، وأكبر أمثلة المنهج المعرفي الاعتباري الحكمي في القرآن الكريم على ذلك هو قصة قارون، قال الله تعالى في سورة القصص:

﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَايَنُّهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتْنَا لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَيْكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُنَا لَا يَفِيحُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

هذا مثال قرآني على أحد المفسدين في الأرض بسبب فتنة المال، وأن الموقف الحق لم يتمكن منه إلا أولوا العلم، وأولئك هم أولو الإيمان الحق، والرأي الحر، الذين جهروا

(1) ابن هشام: السيرة النبوية 2 / 437.

بالرأي الحر قبل أن يخسف الله بقارون الأرض وتؤكد لهم أن كثرة المال لا تغني عن الحق شيئاً، بل قد تكون هي الفتنة الأكبر للناس الذين يعيشون حياتهم يتمنون مثل ما لقارون جهلاً وحسرة، والعاقبة للمتقين.

والمثال الآخر على أهمية قيم المجتمع الصادقة والحكيمة هي من السنة النبوية المطهرة، فلم يهاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى يثرب قبل أن يوقع مع أهلها عقداً اجتماعياً يحفظ المجتمع من الفساد والمفسدين، ويحميه من الترف والمترفين، ولذا جعل رسول الله ﷺ هذا العقد الاجتماعي منصباً على طهارة المجتمع أولاً وقبل كل شيء، فجعل العقد قائماً على المنهج المعرفي الحكمي، علماً بأن العقد الاجتماعي قد تم قبل العقد السياسي بسنة كاملة، وجاء فيه:

قال عبادة: (فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب:

- على أن لا نشرك بالله شيئاً.

- ولا نسرق.

- ولا نزني.

- ولا نقتل أولادنا.

- ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا.

- ولا نعصيه في معروف.

فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل إن شاء عذب وإن شاء غفر) (1).

هذه البنود كلها بنود اجتماعية حكّمية، أي تطهر المجتمع المسلم من الظلم والفواحش والمفاسد، لتصنع المجتمع الطاهر والنظيف، وأهمها النهي عن الشرك بالله شيئاً، وبعد أن توثق هذا العقد الاجتماعي طلب أهل العقد من أهل يثرب أن يرسل النبي عليه الصلاة والسلام معهم من ينشر هذا العقد الاجتماعي ويؤكد به بين عامة الناس، حتى لا يبقى عقداً مع قلة من المسلمين المؤمنين «ولما أنجزت بيعة العقبة الأولى، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم

(1) سيرة ابن هشام، 2 / 433. والسيرة النبوية الصحيحة، الدكتور أكرم ضياء العمري، ج 1 / ص

196، وقال: إسناده صحيح، فتح الباري لابن حجر 1 / 66، وصحيح مسلم 3 / 1333.

الإسلام ويفقههم في الدين، فقام بمهمته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام، ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية⁽¹⁾.

إن أهم ما تؤكد عليه هذه البيعة وهذا العقد أن هناك مرحلة أساسية في حياة البشر لا تستقيم الحياة الإنسانية بدونها، وهي أن الدعوة لا تتوقف عند حدود الأفراد بل لا بد أن تخاطب الجموع الفاعلة والمؤثرة وتجعلها مؤمنة بالحق ومتبعة للعلم والصراف المستقيم، وأن الفساد الحقيقي مصدره هم المستغلون للفساد والمشيعون له بشتى الصور الرخيصة، وبالأخص تجار الفواحش الجنسية، ما ظهر منها وما بطن، مصداقاً لقوله الله تعالى في سورة النور:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

فلم تواجه دعوة الأنبياء صعوبة أو عداوة فكرية من أفراد الناس إطلاقاً، وإنما عارضتها جماعات المصالح الذاتية ومن لها مآربها الخاصة، والذين وصفهم القرآن الكريم بالملا والقوم وغيرها من الأوصاف الطبيعية، والذين كفروا والمجرمين والظالمين والمستكبرين والمترفين وغيرها من الأوصاف المعنوية السالبة، ودوافعهم هي الخوف على مصالحهم الخاصة، والاستكبار في الأرض، والترف في شهوات الدنيا ظلماً، والحسد من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، وغيرها، قال الله تعالى في سورة سبأ:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْقِطُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنْخَنُ صَدَدْتَكُمْ عَنِ الْمَكْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ

(1) السيرة النبوية لابن هشام، 2 / 434. والسيرة النبوية الصحيحة، للعمري، ج 1 / ص 198.

اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا
 رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا
 أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً
 وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
 الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
 مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

هذه الآيات الكريمة من سورة سبأ تتحدث بالمنهج المعرفي الاعتباري عن مواقف
 تكاد تكون مشتركة بين المفسدين في الأرض، ضد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة
 والسلام، ومن بعدهم ضد الذين يأمرون بالقسط من الناس، أي ضد أحرار الرأي، لأن
 المعاندة والاستكبار والكفر والتكذيب والظلم والأمر بالمنكر كان دائماً من فئات مترفة
 ضالة ظالمة مستكبرة، ولذلك عبر عنهم القرآن الكريم بصيغ الجمع اللغوية، ليعلم أن
 خلاص الناس ونجاتهم لا بد أن تواجه المترفين والمفسدين بالمنهج المعرفي الحكمي، حماية
 للناس والمجتمع منهم، فلا تكون نجاة أي مجتمع إلا بخلاصه من المترفين، أو على الأقل
 أن لا تكون لهم السيطرة على المجتمع وأهله، لأن هلاك أي مجتمع رهين بسيطرة المترفين
 فيه على مقاليد أموره، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
 فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (١).

(1) سورة: الإسراء، الآية رقم (16).

التأسيس الحكمي لحرية الرأي السياسي

لا تتوقف معارضة حرية الرأي الفردية على القوى الاجتماعية الظالمة، وإنما من القوى السياسة الظالمة أيضاً، وقد ضرب الله أمثلة من التأسيس الحكمي الذي يذم منع حرية الرأي في المستوى الاجتماعي، الذين أكثر القرآن الكريم في وصفهم بالمترفين كما سبق بيانه، وكذلك جاء الذم لمن يمنعون حرية الرأي من الزعماء والملوك المتجبرين في الأرض، والذين أكثر القرآن من وصفهم بالطغيان، كما في قوله تعالى:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخَسْ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾⁽¹⁾.

في هذه الآيات الكريمة وصف العليم الحكيم علو فرعون بالطغيان، وبالرغم من أن الله أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يخاطب فرعون معرفياً وعقلياً وبالرأي الحر، فبدأ موسى ﷺ بمنهج التزكية وهو منهج معرفي كما سبق بيانه، فقال تعالى: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ ﴾⁽²⁾، أي استعمل موسى ﷺ حرية الرأي واستعمل المنهج المعرفي الأخلاقي، وهو منهج التزكية، واستعمل المنهج المعرفي البياني، فقال: ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخَسْ ﴾⁽¹⁹⁾، واستعمل المنهج المعرفي البرهاني العقلي: ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾⁽²⁰⁾، إلا أن جواب فرعون كان التكذيب والعصيان، بل وادعاء الربوبية، وهذا هو الطغيان، فأهلكه الله وجعله عبرة لكل طاغية متكبر جبار.

أولئك الطغاة هم أكثر المجرمين محاربة لحرية الرأي، ولو كان في أمر فكري عقدي خاص، كما في قول الله تعالى في سورة البروج:

(1) سورة: النازعات.

(2) سورة: النازعات، الآية رقم (18).

﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَهِيدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَحْسَبُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾
 النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُرَّ عَلَيْهَا قُوعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا
 أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَعَنُوا قَتْلَهُمْ فَاهْتُمَّ بِذَنبِهِمْ فَهَتَمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ
 ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْعَفْوَ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالِمٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنثِقُ
 حَدِيثَ الْجَنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَنَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ
 قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ .

في هذه الآيات الكريمة يحدثنا القرآن الكريم بالمنهج المعرفي الاعتباري عمن حارب حرية الرأي، ذاماً له، ومتوعداً أهله بالبطش الشديد والعذاب الأليم، وفي ذلك تأكيد على حق حرية الرأي الديني والاعتقاد، فقال: وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، والإيمان موقف عقدي يصدر عن حرية الرأي والفكر، وشدة التعذيب والقتل الذي واجهه أصحاب الأخدود دليل على مدى الظلم والقهر لحرية الرأي عندهم.

والقرآن الكريم يذكر كثيراً مظالم فرعون وظلمه وطغيانه للعبدة بها، وما يقع فيها من أحداث ودروس وعبر ومنها: قول الله تعالى في سورة طه: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا وَمَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ .

في هذه الآيات الكريمة معان كثيرة نذكر منها بعض ما يخص حرية الرأي، فالله العليم الحكيم يأمر موسى وهارون عليهما السلام أن يأتيا أكبر طاغية في العالم، وأن يقولا له قولاً لينا، أي إن لا يكون سلاحهما إلا حرية الرأي وقول الحق الذي أرسل الله به، وأن الله القوي العزيز هو من يتولى محاسبته وعقابه على إجرامه وطغيانه، أي إن من ضوابط حرية الرأي، أن لا يكون إلا بالقول اللين مهما كان المقابل طاغية أو ظالماً، هذه مهمة الرسل والأحرار من أهل الرأي الحر.

ومما ذكره المنهج المعرفي الاعتباري حول ظلم فرعون قصة الرجل المؤمن، قال الله تعالى في سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَنْقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَجِّنَا وَإِن جَاءَنَا قَالُ فِرْعَوْنَ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَتَنْقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِينٍ مَّا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ۞

فقول الرجل المؤمن، أي الرجل الذي سمع العلم وصدق به وعمل بمقتضاه، وأولى مقتضياته الرأي الحر، فقال: ﴿ يَنْقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾، كناية عن الملك السياسي، أي إنَّ الرجل المؤمن واجه برأيه الحر الدولة «الحاكمة» ناصحاً ومرشداً: أن لا تظلم ولا تطغى في الأرض، وبسبب هذا الموقف الشجاع في حرية الرأي من الرجل المؤمن سميت هذه السورة باسم المؤمن، أي إنَّ السورة أخذت اسمها من حرية الرأي الفردية التي واجهها الرجل المؤمن أعلى قوة ظالمة في الأرض، وفي ذلك تأكيد على صواب حرية الرأي الفردية - الرجل المؤمن - إذا عاش في دولة كافرة ظالمة.

وقد بين القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة شرط حرية الرأي من الرجل، وهو أن يكون مؤمناً، أي إنَّ يكون الرجل عالماً بالحق ومصداقاً به، ومستعملاً له بالصورة الصحيحة، وهي استعمال المناهج المعرفية الصحيحة، مثل منهج الدعوة بالحكمة، فقد نهاهم عن المفاسد، وبالمنهج المعرفي المألّي، وهو التحذير بما يؤولون إليه بعد الموت، فإذا كانوا اليوم لهم الملك اليوم في الأرض ظاهرين، فلن يكونوا كذلك بعد موتهم، أي إنَّ لا يتجاوزوا حقوقهم في الملك فلا يظلموا ولا يفسدوا في الأرض.

هذه صور قرآنية تقوم فيها حرية الرأي الفردية في مواجهة الباطل سلمياً سواء كان ضد ملوك متجبرة طاغية، أو ضد قوى اجتماعية مستكبرة مترفة، فحرية الرأي الفردية في الإسلام مقدره ومحكمة في سور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما هذه الأمثلة القرآنية إلا للعبارة والعظة، حتى يتعلم منها دعاة حرية الرأي من المسلمين والمؤمنين،

حتى يقول رأيه بحرية دون اعتداء على أحد ولو كانت قوى اجتماعية متكبرة مترفة أو قوى سياسية طاغية، فحرية الرأي الفردية سلامة للأفراد والمجتمعات والدول، لأنها تتوجه إليهم بالكلمة الصادقة والنصيحة النافعة والقول السديد.

والسنة النبوية المباركة أوجبت على المؤمنين حرية الرأي نحو الأمراء والخلفاء وأولي الأمر من المسلمين والمؤمنين، فقال الرسول ﷺ، كما في صحيح مسلم: وحدثنا محمد بن عبدالله بن نمير وزهير بن حرب وأبو سعيد الأشج. وتقاربوا في اللفظ. قالوا: حدثنا وكيع. حدثنا الأعمش عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبدالرحمن، عن علي، قال:

بعث رسول الله ﷺ سرية. واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار. وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا. فأغضبوه في شيء. فقال: اجمعوا لي حطباً. فجمعوا له. ثم قال: أوقدوا ناراً. فأوقدوا. ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها. قال: فنظر بعضهم إلى بعض. فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار. فكانوا كذلك. وسكن غضبه. وطفئت النار. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ. فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها. إنما الطاعة في المعروف»⁽¹⁾.

قلت: إذا كان الإنكار على الطاعة في المعصية واجباً، فمن باب أولى أن ينكر على الأمير بحرية الرأي، لأنه إنكار باللسان فقط.

- حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا عبدالله بن إدريس عن يحيى بن سعيد وعبيدالله بن عمر، عن عباد بن الوليد بن عباد، عن أبيه، عن جده. قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة. في العسر واليسر. والمنشط والمكره. وعلى أثرة علينا. وعلى أن لا ننازع الأمر أهله. وعلى أن نقول بالحق أينما كنا. لا نخاف في الله لومة لائم⁽²⁾.

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية، رقم (4743)، 6/431. أخرجه البخاري، كتاب المغازي، الحديث (7145). وأخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، رقم (2625). وأخرجه النسائي، كتاب البيعة، الحديث (4216).

(2) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية، رقم (4745)، 6/431. أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، الحديث (7199). وأخرجه النسائي، كتاب البيعة، الحديث (4160).

قلت: الحديث صريح في الدلالة على وجوب حرية الرأي العلمي، وأن يكون بشجاعة وثقة، ودون خوف ولا رهبة، وهذه من ضوابط حرية الرأي في الإسلام، لأن الخوف من قول الحق يبطل الصدق فيه ويطفئ التأثير منه.

- وحدثني أبو غسان المسمعي ومحمد بن بشار. جميعاً عن معاذ (واللفظ لأبي غسان). حدثنا معاذ (وهو ابن هشام، الدستوائي). حدثني أبي عن قتادة. حدثنا الحسن عن ضبة بن محصن العنزي، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ؛ أنه قال (إنه يستعمل عليكم أمراء. فتعرفون وتنكرون. فمن كره فقد برئ. ومن أنكروا فقد سلم. ولكن من رضي وتابع) قالوا: يا رسول الله! ألا نقاتلهم؟ قال (لا. ما صلوا) (أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه)⁽¹⁾.

قال النووي: وقوله: (من رضي وتابع) معناه: ولكن الإثم على من رضي وتابع. وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت، بل إنها يأثم بالرضى به، أو بأن لا يكرهه بقلبه، أو بالمتابعة عليه⁽²⁾.

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء من غير معصية، رقم

(4778)، 6/446.

(2) نفس المصدر السابق.